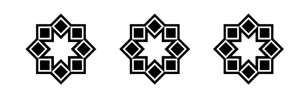
منهج ابن قيـــم الجوزيـــة في تزكية النفس

د. رقية طه جابر العلواني
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
جامعة البحرين

ملخص البحث

يتناول هذا البحث منهج ابن القيم – رحمه الله- المتميز في تزكية النفس والترقي بها. ذلك المنهج الذي برزت مقوماته وسماته من خلال إسهاماته وكتاباته المتعددة فيه. وتبرز أهمية هذا البحث في عصرٍ تشتد فيه حاجة الأمة إلى الرصيد الروحي السليم. ويوظف البحث المنهج التحليلي الاستنباطي في استقراء كتاباته رحمه الله في محاولة للكشف عن مفهوم التزكية لديه، وأسس ومقومات منهجه، وأبرز الوسائل والآليات التي وضعها لتطبيق ذلك المنهج. ولا يروم البحث سلوك سبيل المقارنة بين منهجه رحمه الله والمناهج الآخرى التي سلكها أرباب الفلسفات المختلفة في تنقية النفس والترقي بها، بقدر ما يتمّ التركيز فيه على إبراز مقومات المنهج الصحيح الذي تبناه ابن القيم في آثاره وكتاباته. ومن أهم النتائج التي كشف عنها البحث تلك الأسس والمقومات التي اعتمدها في منهجه المتمثلة في الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام،تخليص التوحيد وتصحيح العقيدة، محاربة التقليد والجمود الفكري، والواقعية والتوازن. كما تمّ الكشف عن أبرز آليات التزكية وأهم الركائز القائمة عليها المتمثلة في فعل المأمورات والطاعات، واجتناب

الآثام والمعاصي والمنهيات، واستفراغ الصفات المذمومة الفاسدة، وتتفرع عنها وسائل لتنفيذها مثل محاسبة النفس، العبادات..كما قام بتقديم وسائل للحفاظ على زكاة النفس تتمثل في: تقديم محبة الله على كل ما سواه، وتعظيم أوامره ونواهيه.



مقدمـــة

جاءت رسالة الإسلام بتعاليمها وآدابها لتحقيق زكاة النفس البشرية والترقي بها نحو مصاف السمو الإنساني. تلك النفس التي تشكل محور الإستخلاف وبؤرة العمران الحضاري على هذه الأرض. وقد أكّدت النصوص القرآنية المتضافرة على أهمية هذه الغاية ودورها في إصلاح وفلاح الإنسان في الدارين.

فزكاة النفس هي الغاية التي وضعت لأجلها التعاليم والآداب القرآنية المختلفة. وتزكية النفس هي الخطوات والسلوكيات الإنسانية التي يعتمدها الفرد في سبيل الترقي والتوصل إلى تلك الغاية. فهي الكسب الإنساني في الاستجابة والتفاعل لتلك التعاليم القرآنية المتضافرة الداعية إلى زكاة النفس، وتكييف الحياة الإنسانية في ضوء ذلك التصور والسلوك.

وهذه الغاية ثابتة بنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة، بيد أن الخطوات المتبعة للتوصل إليها،كانت فيما اختلفت فيه العقول وتباينت فيه الأفهام وفق مناهج معينة.

والإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله، واحدٌ من أبرز العلماء المسلمين الذين تناولوا هذا الجانب الهام في كتاباتهم وإسهاماتهم، من خلال منهج يقوم على العقيدة السليمة المنبثقة، من إتباع القرآن الكريم والسنة النبوية في استيعاب موسوعي متميز وفريد. فقد أسهمت جهوده المتوالية في تقديم وصياغة منهج علمي وعملي متكامل لبناء نفس الفرد الزكية وإصلاح المجتمع من خلال سلوكياتها. فجاء منهجه، متسما بالعملية والواقعية، والتمسك المطلق بالسير على نهج القرآن الكريم والسنة النبوية، دون ما سواهما من المسالك.

والقرآن الكريم والسنة النبوية اختطا خطوات عملية واضحة المعالم والأطر لتحقيق زكاة النفس البشرية والترقي بها وتوظيفها في بناء الحضارة والعمران. فقام رحمه الله بدور المتتبع المستنبط لهذا النهج من خلال فهم عميق لتلك النصوص ومواردها، ومن ثمّ الانتقال إلى عملية تصييرها واقعا سلوكيا في حياة الأفراد. وكان لتبنيه لهذا النهج أثره الواضح في اتسام مشروعه بالفعّالية والواقعية وحيوية الخطاب رغم تغير الظروف الزمانية والمكانية عبر العصور المختلفة.

إن شخصية ابن قيّم الجوزية رحمه الله، بكل ما حققته من إنجازات وإسهامات هائلة، وما خلّفته من تأثير متواصل على الساحة الفكرية الإسلامية، جديرة بأن تكون موضع دراسة عميقة وجهود متواصلة للكشف عن مختلف الجوانب في تلك الشخصية المتميزة.

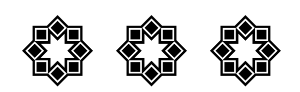
أهمية الدراسة وأهدافها:

تروم هذه الدراسة تسليط الضوء على جانب تزكية النفس عند ابن قيم الجوزية رحمه الله. ذلك الجانب الذي لم ينل الاهتمام الكافي من قِبل الدارسين لشخصيته – رحمه الله- وإنجازاته العلمية الهائلة. وتحاول الدراسة تبني صورة متكاملة عن مشروع الرجل من خلال قراءة متأنية موضوعية، تفتح آفاقا جديدة في فهم منهجه ومقوماته وانعكاسات ذلك المنهج على واقع الأمة في عصره وما تلاه. كما تقوم الدراسة بعملية استنباط لأصول ومعالم هذا المنهج من خلال عملية الرصد والوقوف على مؤلفاته وإسهاماته في هذا المجال.

فقد امتاز ابن قيم رحمه الله في سائر كتاباته بأسلوب إصلاحي، يدعو إلى التفكر و التدبر في أعمال الإنسان وسلوكياته القلبية والظاهرة. كما قام بطرح قضية إصلاح الذات، من خلال نظر الإنسان لذاته

والبحث عن سيئاته و اعوجاجه في السلوك، ومن ثمّ تلمس أسباب الفساد والانحراف في الذات ومعالجتها بحكمة وروية تستأصل تلك الأمراض والأدواء بالكلية.

وتبرز أهمية هذه الدراسة في عصرٍ تشتد فيه حاجة الأمة إلى الرصيد الروحي السليم والفكر الرصين في هذا الجانب، الذي ندرت فيه الدراسات المعتدلة المبنية على منهج التمسك يكتاب الله وبسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وإتباع السلف الصالح دون إفراط أوتفريط. ويعد منهج ابن قيم من أبرز النماذج والاتجاهات في هذا المجال.



منهج ابن قيم الجوزيـــــــة في تزكية النفس

أولا- السيرة الذاتية لابن القيم:

هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الاصل ثم الدمشقي ابن قيم الجوزية. ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة[١]. نشأ ابن قيِّم الجوزية في جوٍّ علمي، وتربى رحمه الله في كنف والده الشيخ الصالح قيّم الجوزية، وأخذ عنه علم الفرائض[٢].

تلقى ابن قيم الجوزية -رحمه الله- العلم على كثير من المشايخ من أمثال عيسى المطعم والقاضي سليمان بن حمزة، والشهاب النابلسي العابر، وفاطمة بنت جوهر، وجماعة، وقرأ في الأصول علي الصفي الهندي وتفقه في المذهب وأفتى [٣]. وأكثر شيوخه أثرا في حياته: والده قيّم الجوزية رحمه الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فقد لازمه، وتفقه على يديه، وقرأ عليه كثيرًا من الكتب، وبدأت ملازمته له سنة (٧١٢هـ) حتى توفي شيخ الإسلام سجينًا في قلعة دمشق (٧٢٨هـ).

كما تتلمذ على يديه عدد من العلماء المبرزين منهم: ابن رجب الحنبلي صاحب طبقات الحنابلة. ومنهم ابن كثير حيث يقول: "وكنت من أصحب الناس له وأحبّ الناس إليه"[٤].

وعُرف عن ابن قيم الجوزية -رحمه الله- الرغبة الصادقة الجامحة في طلب العلم، والجَلَد والتَّفاني في البحث منذ نعومة أظفاره[5]

وكان ابن قيّم الجوزية **مُغرمًا بجمع الكتب**، مما يشير إلى رغبته الجامحة لطلب العلم بحثًا وتصنيفًا، وقراءةً وإقراءً يظهر ذلك في غزارة المادة العلمية في مؤلفاته، والقدرة العجيبة على حشد الأدلة[٦]. وقد ظهر

أثر ذلك الإطلاع الواسع والنهم العلمي الهائل، في الآثار العلمية المتعددة والمتنوعة التي خلّفها وراءه في مختلف العلوم والفنون فألّف في الفقه والسير، ونقد علم الكلام والأصول وغير ذلك من فنون.

وكان رحمه الله صاحب **شخصية فذة حرّة في البحث والرغبة في التوصل إلى الصواب والسير معه أينما سارت ركائبه**، يناقش في المسائل ويرجّح ويبدي رأيه وإن خالف في ذلك غيره من العلماء [٧].

وكان رحمه الله عاملا بما يدعو إليه من تهذيب النفس ومحاسبتها والأخذ بها نحو مصاف الترقي والسمو على هدى ونور وبصيرة علمه بالكتاب والسنة، فعُرف عنه المداومة على العبادة والتنفل.

وقد ترك ابن القيم رحمه الله وراءه ثروة علمية هائلة تمثلت في عدد كبير من المؤلفات والتصانيف في مختلف الفنون والعلوم[٨]. وعلى الرغم من تنوع القضايا المطروحة في كتبه ومؤلفاته المختلفة، إلا أنها تميزت بالتقيد بمنهج لا يحيد عنه الشيخ في كتاباته قاطبة. ذاك هو منهج التمسك المطلق بالكتاب والسنة وإخضاع القضايا المختلفة لذاك المنهج ومعالجتها من خلال تطبيقه وتحكيمه فيها.

ولا يخفى على المتتبع لآثاره العلمية، منهجه في محاربة التيارات الفكرية والتقاليد السائدة في عصره والمنافية أو البعيدة عن مقاصد الشرع وغاياته فكانت ولا تزال مؤلفاته، شاهدة على أهمية إخضاع الواقع المتغير بظروفه ودواعيه لأحكام الشرع وتعاليمه وليس العكس. وبهذا يكون ابن قيم الجوزية رحمه الله قد قدّم أنموذجا متميزا للعالِم الحكيم المداوي لهموم بيئته وقضايا عصره في غير خضوع لأعراف جائرة أو مجاراة لتقاليد سائدة.

وقد لاقى رحمه الله صنوفا من المحن والخطوب بسبب تعرضه

لأدواء عصره ومحاولة إصلاحه لك لما خالف الشرع وأحكامه. فاعُتقل مع شيخه ابن تيمية رحمهما الله في القلعة بعد أن اهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة فلما مات شيخه أفرج عنه[٩].

فقد عاش ابن قيم الجوزية في الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن السابع والقرن الثامن الهجري، في فترة من أكثر الفترات اضطرابا من الناحية الفكرية. وانتشرت البدع واختلطت الممارسات البعيدة عن تعاليم الشرع بتقاليد الناس حتى باتت جزءا من أعرافهم وسلوكياتهم المألوفة، رغم كل ما تحمله من تجاوز لأحكام الشرع، وسلطة لأعراف وتقاليد مجافية للشرع. تلك السلطة التي درج عليها البشر في حياتهم، فجاء الإسلام بتشريعاته السمحة وهذّب أعرافهم وأبطل العادات والتقاليد المنافية لمنهجه بحكمة وروية.

كما تضافرت على العالم الإسلامي ظروف متداخلة، من وفود أعداد هائلة من مجتمعات متباينة في بنيتها وتكوينها الفكري والاجتماعي وإنضمامها إلى المجتمع الإسلامي، إلى النكبات السياسية المتتالية التي وقع المسلمون تحت وطأتها على مدى قرون، إلى شيوع فلسفات الامم المختلفة إلى غيرها من عوامل متضافرة، أسهمت في وقوع المجتمع الإسلامي تحت وطأة الاعراف والتقاليد المخالفة للدين من جديد.

من هنا كان دور ابن القيم رحمه الله يتسم بالصعوبة والوعورة في مواجهة سيل من التيارات الفكرية المتغلغلة في أعماق الكثيرين من أفراد المجتمع آنذاك. إلا أنه رحمه الله شقّ طريقه وفق منهج واضح المعالم يلتزم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يحيد عن ذلك قيد أنملة.

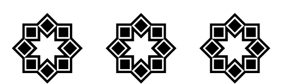
فجاء منهجه متميزا بأصالته (رغم كثرة التيارات الوافدة من حوله)، بعيدا عن المثالية، واقعيا، معالجا لأزماته ومواجها لها، متسما

بالتوازن والموضوعية.

وقد قام رحمه الله بتوصيف الحالة التي كان يعيشها في مجتمعه آنذاك أبلغ توصيف حيث يقول في ذلك:

"الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق، فالعوائد السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع بل هي عندهم أعظم من الشرع، فانهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع وربما كفرّوه أو بدّعوه وضللوه أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن ونصبوها أندادا للرسول يوالون عليها ويعادون، فالمعروف عندهم ما وافقهم والمنكر ما خالفها. وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة، فربى فيها الصغير ونشأ عليها الكبير واتخذت سننا بل هي أعظم عند أصحابها من السنن الواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع. عمّ بها المصاب وهجر لأجلها السنة والكتاب من استنصر بها فهو عند الله مخذول ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله"[١٠].

والمتأمل في كلام وتوصيف ابن القيم رحمه الله لأدواء مجتمعه، يلحظ أوجها متعددة للتشابه بين ما حدث ويحدث في كثير من المجتمعات في الوقت الحاضر، مما يعطي لمنهجه بعدا آخر يتمثل في الحيوية والفعالية والصلاحية لهذا الزمان.



ثانيا- مفهوم النفس وزكاتها عند ابن قيم الجوزية

المطلب الأول: طبيعة النفس

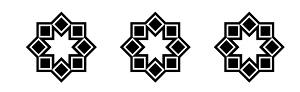
النفس جوهر الإنسان وحقيقته فالإنسان في الإسلام ليس كائنا أحادي الكينونة بل هو كائن ذو أبعاد. فهو مكون من روح وجسد، ولكل واحدٍ منهما طبيعته وخصائصه واحتياجاته. وراعى الإسلام بأحكامه ومقاصد تشريعاته ذلك، فأعطى للبدن حاجاته وهذّب متطلباته وفق نظام معين، كما أعطى للروح ما تحتاج إليه للارتقاء إلى الكمال الإنساني، فكان التوازن وتحقيق التكامل بين الروح والجسد من أهم المطالب التي راعاها الإسلام ودعا إليها.

وقد اهتم المفكرون والفلاسفة القدماء بقضية طبيعة النفس البشرية، فتحدث سقراط (٣٩٩ ق.م) عن طبيعتها وذهب إلى أن النفس ذات روحية قائمة بذاتها وهي جوهر الإنسان الحقيقي والبدن أداة لها. كما ذهب أفلاطون (٣٤٨ ق.م) إلى أن النفس هي العنصر الجوهري في الإنسان وهي ذات مستقلة فالإنسان مركب من جوهرين نفس وبدن. أما أرسطو (٣٢٢ ق.م) فقد ذهب إلى انها صفة ذاتية توجد داخل البدن وسماها بالكمال فوجودها شرف وكمال للبدن[١١]. واهتم فلاسفة الإسلام كذلك بالحديث عن النفس ومنهم مسكويه، الذي كان يرى أن مشكلة الأخلاق في النفس، وأن معرفة النفس هي السبيل الأقوم لتحصيل الخلق الفاضل وعلى الإنسان معرفة مايزكي النفس فتفلح وما يدسيها فتخيب[١٢].

وتعرض ابن القيم رحمه الله لمسألة طبيعة النفس البشرية في

كتابه الروح، وخصص له المسألة التاسعة عشرة[١٣]. وذهب إلى أن جمهور العقلاء على أن الإنسان هو البدن والروح معا و الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نورانى علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها. ثم ساق الأدلة النقلية من النصوص القرآنية والسنة النبوية والعقلية على إبطال الأقوال والمذاهب المخالفة لذلك في مائة وستة عشر دليلا[١٤].

ولانجد لابن القيم رحمه الله في ذلك النهج، بحثاً يغرق في متاهات فلسفية تجريدية حول ماهية النفس، على الرغم من اطلاعه الواضح على أقوال الفلاسفة والعلماء من معاصريه ومن سبقه بقرون. وهذا يؤكد سمة العملية والواقعية في فكره ومنهجه الإصلاحي وبعده عن الخوض في مناظرات ومجادلات فلسفية لا يترتب على الخوض فيها عمل.



المطلب الثاني
أنواع النفس عند ابن القيم

انطلق ابن القيم في تحديد أنواع النفس من النهج القرآني الذي حدد أنواع النفس في ثلاث: المطمئنة والأمارة بالسوء واللوامة ..[١٥] . وهي نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى بإعتبار كل صفة بأسم فتسمى مطمئنة بإعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه عن حب ما سواه وبذكره عن ذكر ما سواه وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه.

وتسمى لوّامة وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة، وهناك نفس لوّامة ملومة وهي التي يلومها الله عز وجل وملائكته. وتسمى أمارة وهي المذمومة التي تأمر بكل سوء، فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها[١٦].

ويرى ابن قيم رحمه الله أن النفس بذاتها أمارة بالسوء لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا من رحمه الله والعدل والعلم طارىء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة[١٧].

ويرى رحمه الله أن سبب الظلم ناجم عن واحد من أمرين: إما جهل وإما حاجة والنفس في الأصل جاهلة، والحاجة لازمة لها فلذلك كان أمرها بالسوء لازما لها، إن لم تدركها رحمة الله وفضله[١٨]. إلا أن ذلك لا يعني خلو طرف الإنسان من عملية الترقي بنفسه والوصول بها إلى مصاف النفس المطمئنة (كما سنرى من منهج ابن القيم في ذلك).

المطلب الثالث
تزكية النفس ...المفهوم والمصطلح

تأتي تزكية النفس في معنيين: الأول بمعنى المديح والثناء عليها وهذا النوع منهي عنه بدليل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (النساء٤٩). وقد أشار إلى هذا النوع ابن القيم رحمه الله إلى هذا النوع وإن كان إنما قصد العلمية[١٩].

أما المعنى الثاني: زكّى لغة في سقّى (الماء) أي كأنه نظّفها بالماء وطهرها. ومن هنا جاءت النصوص القرآنية تحض على التزكية بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾(طه ٧٦). وقال تعالى: ﴿ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾(فاطر١٨). وقال أيضا: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ (عبس٣). وقال في آية آخرى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) (الأعلى١٤). وهنا تزكية النفس تأتي بمعنى تطهيرها.

ومفهوم التزكية بهذا المعنى من المفاهيم الأصيلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد أكدّ القرآن الكريم على الربط بين تزكية النفس وفلاح الإنسان ذلك الفلاح الذي جعله من أسمى الغايات للخلق. قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قد أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس٧-١٠) فهي عنصر مهم في رسالة الإسلام، بل هي من المهمات التي اوكلها الله سبحانه للرسل والأنبياء. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي

ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران ١٦٤).

وتزكية النفس تدعو إلى التخلّي عن الأخلاق الذميمة والسلوكيات السيئة، وإحلال الأخلاق الفاضلة محلها لتصبح النفس طاهرة نقية، ويكون صلاحها في الفرد عنوان صلاح المجتمع. وقد جاء تعبيّر ابن القيم رحمه الله عن تزكية النفس بمصطلحات متعددة منها، التزكية[٢٠]، وجهاد النفس[٢١]،وأحيانا زكاة القلب الذي خصص الباب الثامن في كتابه إغاثة اللهفان للكلام فيه[٢٢].

أما مفهوم التزكية عنده، فينصرف إلى أنها عملية كسبية يصل بها المرء إلى كمال النفس المطلوب وسعادتها. وقد أكد في غير موضع أن الوصول إلى كمال النفس، هو غاية سعادتها وشرفها.

ثم إنه ناقش وردّ مختلف المذاهب والأقوال الفلسفية التي ذكرها الفلاسفة حول كمالات النفس التي لا بد منها، وأوضح جوانب الخلل والقصور فيها. فقد ركزت تلك المذاهب على أن غاية كمال النفس هو استكمال قوتيها العلمية والعملية، فاستكمال قوتها العلمية عندهم بانطباع صور المعلومات في النفس واستكمال قوتها العلمية بالعدل. فهم يرون أن النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية ولها تصور وعلم بقوتها العلمية، فقالوا كمال الشهوة في العفة وكمال الغضب في الحكم والشجاعة وكمال القوة النظرية بالعلم و التوسط في جميع ذلك بين طرفي الإفراط و التفريط هو العدل. وقد ردّ ابن قيم رحمه الله أن غاية ما عندهم من العلم والعمل، ليس فيه بيان خاصية النفس التي لا كمال لها بدونه البتة وهو الذي خلقت له و أريد منها ألا وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته ومعرفة ما ينبغي لجلاله وما يتعالى ويتقدس عنه و معرفة أمره ودينه والتمييز بين مواقع رضاه وسخطه و استفراغ الوسع في التقريب إليه وامتلاء

القلب بمحبته بحيث يكون سلطان حبه قاهرا لكل محبة ولا سعادة للعبد في دنياه ولا أخراه إلا بذلك ولا كمال للروح بدون ذلك البتة.[٢٣]

وأوضح رحمه الله أن ليس في حكمة الفلاسفة العلمية إيمان بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا لقائه رسله، وليس في حكمتهم العلمية عبادته وحده ولا شريك له واتباع مرضاته واجتناب مساخطه، ومعلوم أن النفس لا سعادة لها ولا فلاح إلا بذلك فليس من حكمتهم العلمية والعملية ما تسعد به النفوس و تفوز[٢٤].

وأكد رحمه الله أن النفس لابد لها من مراد محبوب لذاته لا تصلح إلا به ولا تكمل إلا بحبه وإيثاره وقطع العلائق عن غيره وان ذلك هو النهاية وغاية مطلوبها ومرادها الذي إليه ينتهي الطلب فليس ذلك إلا الله الذي لا اله إلا هو قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ (الأنبياء٢١). وليس صلاح الإنسان وحده وسعادته إلا بذلك بل وكذلك الملائكة والجن وكل حيّ شاعر لاصلاح له إلا بأن يكون الله وحده ألهه ومعبوده وغاية مراده[٢٥].

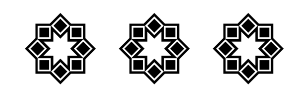
فالتزكية في فكره رحمه الله تتطلب أمرين: الأول يُعنى يتطهير ومعالجة الصفات السلبية المذمومة لدى الشخص و التخلص منها عن طريق التوبة والاستغفار. يقول في باب زكاة القلب:" نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن وبمنزلة الزغل في الزرع وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة، تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجوانب الفاسدة والمواد الرديئة، زكا

ونما وقوى واشتد ..فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته "[٢٦].

ويتبع ذلك، إصلاح الآثار المترتبة على الذنوب والتراكمات الناجمة عن ارتكاب الخطايا ومزاولة الصفات المذمومة.. فهي عملية تطهير للعبد ومداواته وإخراج المواد الردية عنه أولا ثم إصلاح النفس وزجرها وتوقيفها على فقرها و ضرورتها الى ربها[٢٧].

أما الأمر الثاني في تحقيق تزكية النفس لديه، فينصرف إلى تأسيس صفات إيجابية في النفس والترقي بها على نحوٍ يتسم بالاستمرارية. فالتزكية هنا تعمل على تنمية الشخصية الإنسانية بثروة من القيم الحافزة الدافعة للإنسان إلى الخير. وهي بذلك تحقق الغنى الحقيقي للنفس مصداقا للحديث الوارد عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَال َ) لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ)[٢٨].

فالتزكية في منهجه رحمه الله هي العمل الإنساني والسعي الكسبي للترقي بالنفس والوصول بها إلى فعل الطاعة واجتناب المعصية وهو التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، وهو ما أطلق عليه في بعض مؤلفاته كمال النفس ومعرفتها ما تسعد به ونقصها وما تشقى به[٢٩].



ثالثا: أسس ومقومات منهج ابن القيم في تزكية النفس

اعتمد ابن القيم رحمه الله في منهجه في الترقي بالنفس وتهذيبها على أسس واضحة المعالم، من أهمها مايلي:

الأول: الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويراد بها أن عملية تزكية النفس والتوصل بها إلى الكمال التي دعا إليها ابن القيم في كتاباته، كانت مرجعيتها للكتاب والسنة وآثار السلف. وهذا هو الذي يشكل مسلمات الفكر الدعوي الإصلاحي في الإسلام مهما تغيرت الظروف واختلفت الأزمنة.

فهو يعتبر من المقومات الذاتية المخصصة لهوية هذا الفكر. وعلى هذا أنكر رحمه الله على كل من حاول تزكية نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب!. فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكية النفس وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم[٣٠].

وأوضح رحمه الله أن تزكية النفس بغير الوسائل التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هو من قبيل كيد الشيطان وتضليله. وضرب لذلك مثلا بجهال المتصوفة وما ألقاه الشيطان إليهم من الشطح والطامات، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات وفتح لهم أبواب الدعاوي الهائلات. وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقا إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان وأغناهم عن

التقيد بالسنة والقرآن، فحسّن لهم رياضة النفوس وتهذيبها وتصفية الأخلاق والتجافي عما عليه أهل الدنيا وأهل الرياسة والفقهاء وأرباب العلوم، والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شيء حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم. فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول، نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفا وعيانا. فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة ولكم القشور ولنا اللباب فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات وأوهمهم أنها من الآيات البينات وأنها من قبل الله سبحانه إلهامات وتعريفات فلا تعرض على السنة والقرآن ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان[٣١].

وقد أكد بهذا أن منطلق التزكية ومنهجها لا يكون إلا عن طريق الرسل، مما يؤكد حرصه على إبراز سمة المرجعية التامة للكتاب والسنة في إجراء عملية التزكية[٣٢]. فهذه المرجعية وحدها، هي التي تفصل بين المناهج المقبولة من غيرها وهي التي تحدد ما يمكن تغييره وما لا يقبل التغيير في إطار يتلاءم مع مقاصدها وغاياتها الأصيلة. فعملية الترقي بالنفس وإصلاحها وتزكيتها على هذا الأساس، تكون عملية مباشرة أصيلة مستمدة من نبعها السلفي السليم.

ومن أبرز معطيات تلك المرجعية، قدرتها على التفرقة والتمييز بين الدين المعصوم المطلق الثابت بالوحي الإلهي وبين التيارات الفكرية المحدودة بأطر الزمان والمكان والبيئة المتولدة فيها. فمنهج تزكية النفس والترقي بها وتحديد الوسائل المؤدية إلى تلك الغاية، جهد بشري وفهم

إنساني، تحكمه شهادة القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

ويعدّ هذا الضابط في منهج ابن القيم رحمه الله، ضابطا **جوهريا محوريا**، ضمن لمنهجه رحمه الله - كما سنرى لاحقا- الواقعية والصلاحية والحيدة والموضوعية والتوازن في ضوء الالتزام بالقرآن الكريم والسنة.

ومما أسهم في شدة تمسكه بهذا المنهج والتزامه به، طبيعة الظروف التاريخية والاجتماعية والفكرية التي كانت سائدة في عصره. فقد انتشرت التيارات الفكرية وتصارعت فيما بينها، ولم ير رحمه الله مخرجا لذلك كله إلا بالعودة إلى النبع الصافي المتمثل في الكتاب والسنة.

كما كان يرى سبب استفحال تلك الظاهرة ونشوئها إنما يرجع في الأصل إلى إعراض الناس عن تحكيم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام والمرجعية المطلقة إليهما. يقول في ذلك:" لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا الى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة فى قلوبهم وكدر في إفهامهم ومحق فى عقولهم، وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتى ربي فيها الصغير وهرم عليها الكبير فلم يروها مكرا فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن والنفس مقام العقل والهوى مقام الرشد والضلال مقام الهدى والمنكر مقام المعروف والجهل مقام العلم والرياء مقام الاخلاص والباطل مقام الحق والكذب مقام الصدق والمداهنة مقام النصيحة والظلم مقام
العدل.." [٣٣].

وقد تمكن رحمه الله من خلال هذا النهج، رفض المناهج المغايرة

وردّ التزكية إلى نبعها القرآني السليم. وقد أوضح رحمه الله هذا المنهج في عدة مواضع في كتبه التي جاءت تطبيقا عمليا وانعكاسا واضحا لذاك النهج والتزاما به.

يقول في ذلك:" شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة، مشتملة على صلاح الأبدان كاشتمالها على صلاح القلوب وأنها مرشدة الى حفظ صحتها ودفع آفاتها بطرق كلية، قد وُكل تفصيلها إلى العقل الصحيح والفطرة السليمة بطريق القياس والتنبيه والايماء كما هو في كثير من مسائل فروع الفقه. ولا تكن ممن إذا جهل شيئا عاداه، ولو رزق العبد تضلعا من كتاب الله وسنة رسوله وفهما تاما في النصوص ولوازمها، لاستغنى بذلك عن كل كلام سواه ولاستنبط جميع العلوم الصحيحة منه. فمدار العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه وذلك مسلم الى الرسل صلوات الله عليهم وسلامه فهم اعلم الخلق بالله بأمره وخلقه وحكمته في خلقه وأمره .."[٣٤].

يتضح من عبارته رحمه الله، تأكيده على سمة المرجعية إلى كتاب الله والسنة النبوية في منهجه الفكري والإصلاحي، وإستنباطه لمختلف المسائل والأمور من نبعهما ووفقا لفهمه لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واستغناؤه بهما عن كل ما سواهما.

ومن هذا المنطلق الواضح بدأ رحمه الله منهجه في تصحيح الوسائل المؤدية إلى المطلوب من صلاح القلوب والنفوس وسعادتها بالترقي إلى كمالاتها. فقد أدرك رحمه الله الإنحرافات الهائلة التي وصل إليها المجتمع، فعمل على إعادة البناء بناءا نقيا يلتزم كتاب الله وآياته وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وينطلق في كل مسألة منهما ويردّ كل أمر إليهما. فهما المنطلق وإليهما المرجع والمردّ.

لقد أدرك رحمه الله بذهنه الثاقب أن المخرج من كل التيارات الضالة والأهواء الفكرية المنحرفة هو العودة إلى المنبع الصافي المتمثل في الكتاب والسنة، وعرض كل رأي وحكم عليهما وردّه إليهما. يقول في ذلك:" .. إذا قوبل بين الآراء المختلفة والأقاويل المتباينة **وعُرضت على الحاكم الذي لا يجور وهو كتاب الله وسنة رسوله** وتجرد الناظر عن التعصب والحمية واستفرغ وسعه وقصد طاعة الله ورسوله فقلّ أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال وما هو أقرب إليه والخطأ وما هو أقرب إليه فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب وما هو أقرب إليه والخطأ وما هو أقرب إليه ومراتب القرب والبعد متفاوتة"[٣٥].

وعلى هذا جاءت كتبه التي ناقش فيها مسألة تزكية النفس وصلاحها وغير ذلك من أمور ومسائل، وفق ذلك الأساس وبناءً عليه، فقام بتنقية التصورات الواردة في هذا المجال وتصحيحها وإعادة توحيد الأمة والدعوة إليه على أساس العودة إلى المرجعية المعصومة المتمثلة في الكتاب والسنة.

وأصبح الفيصل لديه بين الآراء والاختلافات الحادثة، تلك المرجعية المعصومة الحاكمة على الآراء المهيمنة عليها، يقول في ذلك:" ..حاكمونا إلى الوحي والميزان لا إلى منطق يونان ولا إلى قول فلان ورأي فلان فهذا كتاب الله ليس فوق بيانه مرتبة في البيان، وهذه سنة رسوله مطابقة له أعظم من مطابقة البنان للبنان.."[٣٦].

الثاني: تخليص التوحيد وتصحيح العقيدة

نزل القرآن الكريم موضحا أركان الإيمان واسس العقيدة النقية، في زمن شاعت فيه العقائد المنحرفة وسادت الضلالات والخرافات الفكرية حتى باتت دينا للإنسان وعرفا سائدا له. فأعاد الإسلام بتعاليمه

وتشريعاته ومنهجه الواضح للعقيدة صفاءها وسموها، فحررّ الإنسان من تلك الضلالات وبنى هيكل التوحيد الخالص وأعاد له رونقه وسموه.

ولكن تعرض العالم الإسلامي للعديد من المحن- كما سبقت الإشارة إلى ذكره- ووقوعه تحت وطأة الكثير من التيارات الوافدة، أدى إلى حدوث تجاوزات، بدأت تلوح برأسها في هذا الباب. فدخلت الفلسفة اليونانية بأساطيرها وخرافاتها وتسربت معها ومع غيرها تيارات بعيدة عن منبع القرآن الكريم والسنة واختلطت بالعقيدة، وأفقدتها فاعليتها في الترقي بالنفس الإنسانية وتزكيتها، لما علق بها من شوائب وما التصق بها من أفكار وبدع.

والمنظومة العقائدية في الإسلام،منظومة أسسها القرآن الكريم واهتم بمفرداتها اهتماما بالغا، وخاض في تفاصيلها، فلم يترك شاردة ولا واردة إلا أعطاها موقعها ومكانها الملائم لتصحح وتهذّب وتفعّل حركة الإنسان في الحياة وفق منهج التوحيد الخالص.

وليست المنظومة العقائدية بمفرداتها المتعددة في الإسلام، منظومة تجريدية أو تنظيرية بعيدة عن الواقع بل هي على العكس من ذلك. لقد جاءت لتكون غاية ووسيلة في ذات الوقت، غاية على اعتبار أن هدف الخليقة عبادة الله سبحانه على نور وبصيرة. ووسيلة كذلك، على اعتبارها أهم السبل للتوصل إلى كمالات النفس وسعادتها. وعلى هذا جاءت العقيدة الخالصة النقية من الشوائب، قاعدة من أهم القواعد والأسس التي ابتنى عليها ابن القيم منهجه في تزكية النفس. كما جاء التوحيد محورا وسمة من أهم سمات منهجه في الإصلاح والتزكية.

يقول في ذلك رحمه الله:

" فالغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بني آدم وسعادتهم

و نجاحهم هي معرفة الله ومحبته وعبادته وحده لا شريك لـه وهي حقيقة قول العبد لا اله إلا الله وبها بعث الرسل ونزلت جميع الكتب ولا تصلح النفس ولا تزكو ولا تكمل إلا بذلك قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (فصلت ٦-٧). أي لا يؤتون ما تزكى بـه أنفسهم من التوحيد والأيمان ولهذا فسرها غير واحد من السلف بأن قالوا لا يأتون الزكاة لا يقولون لا اله إلا الله وحده لا شريك لـه وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه هو اعظم وصية جاءت بها الرسل ودعوا إليها الأمم وسنبين أن شاء الله عن قريب بالبراهين الشافية أن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله وحده محبوبها ومعبودها لا أحب إليها منه ولا آثر عندها من مرضاته و التقرب إليه وأن النفس محتاجة بل مضطرة إليه حيث هو معبودها و محبوبها وغاية مرادها أعظم من اضطرارها إليه من حيث هو ربها وخالقها وفاطرها ولهذا كان من آمن بالله خالقه ورازقه وربه ومليكه ولم يؤمن بأنه لا اله يعبد ويحب ويخشى ويخاف غيره بل أشرك معه في عبادته غيره فهو كافر به مشرك شركا لا يغفره الله له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾. (النساء٤٨). "٣٧

ويرى ابن القيم رحمه الله أن هذا الأساس العقائدي يقوم في أصله، على معرفة النفس بخالقها ومن ثمّ محبتها له وعبادتها له وفق تلك المعرفة، فالمحبة للخالق سبحانه محبة مبنية على معرفة الخلق بفاطرهم ورازقهم. والتوصل إلى ذلك، هو أساس الترقي بالنفس وتحقيق سعادتها. يقول في ذلك:" .. النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون

الله وحده محبوبها ومعبودها لا أحب إليها منه ولا آثر عندها من مرضاته والتقرب إليه، وأن النفس محتاجة بل مضطرة إليه حيث هو معبودها ومحبوبها وغاية مرادها أعظم من اضطرارها إليه من حيث هو ربها وخالقها وفاطرها"[٣٨].

وقد اعتبر رحمه الله أن مبتدأ أمراض القلب والنفس واعتلالها، من الشرك والبعد عن حقيقة التوحيد. فأعظم أدواء القلب سببها، الشرك والذنوب. كما أنه أرجع أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها، إلى ثلاثو أمور أهمها: تعلق القلب بغير الله فغاية التعلق بغير الله شرك وان يدعى معه اله آخر، فالشرك يدعو الى الظلم والفواحش كما ان الاخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه. فالشرك اظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد. فالعدل قرين التوحيد والظلم قرين الشرك ولهذا يجمع سبحانه بينهما أما الاول ففي قوله:﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران١٨). وأما الثاني ففي قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان١٣).٣٩. ولا يكون علاجها إلا من خلال التمسك بأضدادها، فالمرض يزال بالضد والصحة تحفظ بالمثل. فالتوحيد يفتح للعبد باب الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج[٤٠].

ويذهب ابن القيم إلى ابعد من ذلك حين يقرر أن السبيل إلى دفع شدائد الدنيا يتمثل في التوحيد، بناءا على استهدائه رحمه الله بالنبع القرآني واستنباطه المتتبع لمنهج القرآن والسنة[٤١].

الثالث: محاربة التقليد والجمود الفكري

ذمّ ابن القيم رحمه الله التقليد بمختلف صوره وأشكاله، من تقليد للمذاهب الوافدة والتيارات الفكرية السائدة، في مناهجها للتزكية والترقي

بالنفس والوصول بها إلى كمالاتها. وقد كان للبيئة التي نشأ فيها رحمه الله أثرها الواضح في زيادة الاهتمام بهذا الجانب لديه وتوطيده كدعامة من أهم دعائم منهجه الإصلاحي. فقد ورث المجتمع الذي عاش فيه رحمه الله، تركة ثقيلة من مخلفات العصور السابقة بكل معاناتها وإفرازاتها السياسية والاجتماعية والفكرية المتدهورة، حتى شاع التقليد وانتشر رغم كل ما امتاز به عصره من زيادة المؤلفات وظهور الموسوعات المتعددة[٤٢].

وغلب على أكثرها سمة النقل والاتباع والتقليد، حتى غدت الاستقلالية في التفكير جريمة يُعاقب فاعلها. فقلّت العقول المدركة لخطورة التقليد، الواعية بضرورة تجاوزه حتى بدت- كما أشار رحمه الله- لها سلطان أغلب من سلطان الشرع.

من هنا جاء منهجه الإصلاحي محاربا للتقليد نابذا له، مجاوزا في فكره وأطروحاته لكل مسائله، محاربا بشجاعة وجرأة قلّ نظيرها مختلف الحواجز التي أقامها المقلدون لعرقلة دعوته. حتى بات منهجه، من أكثر المناهج الدعوية توفيقا ونجاحا في إبراز مساوئ التقليد وأثره في تعمية الحقائق وإدراكها[٤٣]. ومن هنا جاءت العديد من كتاباته، محذرة من مخاطر التقليد وأبعاده العظيمة في شلّ منهجية التفكير الإنساني بمختلف صوره وأنشطته، ليعلن مبدأه العام بقوله:" **التقليد يعمي عن إدراك الحقائق فإياك والإخلاد إلى أرضه**"[٤٤].

وقد قاوم رحمه الله مختلف التيارات وحاور أفكارها ومبادئها بمنهج، اتسم بالعقلانية والبعد عن التعصب والجمود والحجر على العقول والأفكار، بما فيها التيارات الفلسفية التي انتشرت في عصره، بكل ما قدمته في قضية تزكية النفس على وجه الخصوص.

وكان منهجه فيصلا بين تلك الآراء والتيارات واقفا عليها مبينا عللها ومواطن العور والخلل فيها، مستحضرا للنهج القويم القائم على رفض التقليد لأي تيار كان والاعتداد بما ورد في الكتاب والسنة.

واعتبر محاربة التقليد من اهم وسائل قبول الحق والإعانة إليه. يقول في ذلك:" لا يستقر للعبد قدم في الإسلام حتى يبرأ من هذه الممانعة والمعارضة (أي المعارضة بالتقليد واتباع الآباء والمشائخ والمعظمين في النفوس) فحينئذ يدخل في دائرة الإسلام ولا يمكن تحكيم الرسول وانتفاء الحرج ووقوع التسليم حتى تنتفي هذه الممانعة والمعارضة من كل وجه"[٤٥].

ومن هنا جاءت دعوته للعلم وإعتبار أن العلم من أهم وسائل التزكية، حيث يقول:" النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال يزكيها ولا يكمله ولا يزيدها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها "[٤٦].

الرابع: الواقعية والتوازن:

لا ينطلق ابن القيم في منهجه في التزكية من النظرة المثالية التي ترى في الإنسان ملاكاً، منزهاً عن كل خطأ أو زلل، بل يعتمد في منهجه على النظرة الواقعية التي تدرك حقيقة الإنسان. تلك الحقيقة التي ترى أن الحكمة الالهية قد اقتضت تركيب الشهوة والغضب فيه، وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما، وبهما وقعت المحنة والابتلاء، وعُرّض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الاعلى والهبوط الى اسفل سافلين. فهاتان القوتان لا تدعان العبد حتى تصلان به إلى منازل الابرار او تضعانه تحت اقدام الأشرار. ولن يجعل الله منْ كانت شهوته

مصروفة الى ما اعد له في دار النعيم وغضبه، حمية لله ولكتابه ولرسوله ولدينه، كمنْ جعل شهوته مصروفة في هواه وامانيه العاجلة وغضبه مقصور على حظه[٤٧]...

كما اعتبر أن تركيب الانسان على هذا الوجه من تصارع قوى الخير والشر فيه ووجود الغضب والشهوة فيه، غاية الحكمة، فلابد أن يقتضي كل واحد من القوتين اثره، فكانت المخالفات والمعاصي والذنوب فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما، ولو لم يخلقا في الانسان لم يكن انسانا بل كان ملكا[٤٨]. يقول في ذلك:" لو احترز العبد ما احترز، فلا بد له من غفلة ولا بد له من شهوة ولا بد له من غضب، وقد كان ادم أبو البشر من أحلم الخلق وأرجحهم عقلا وأثبتهم ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيما أوقعه فيه"[٤٩].

من هنا كان ذكره في بعض كتبه لفوائد الذنوب والمعاصي والسيئات على تفصيل، يروم التاكيد على بشرية الخلق وضعفهم وعجزهم وتصور الزلل منهم لتبقى التزكية والترقي بالنفس جهدا بشريا يتسم بالمجاهدة والصبر وجزيل المثوبة في الآخرة[٥٠].

وثمة أمر آخر يلازم الحديث عن الواقعية في منهجه رحمه الله ألا وهو التوازن. فيرى رحمه الله التوازن والالتزام بالحدّ المشروع في كل أمر، ميزانا دقيقا للالتزام بامر الله وترقية النفس وتزكيتها. فكل أمر لابد أن يكون له حدا يقف المرء عنده، فمتى جاوز الإنسان الحد صار فعله عدوانا، ومتى قصر عنه كان نقصا ومهانة، وهذا في سائر الأعمال والأقوال والأخلاق. فالأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط هو العدل، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة[٥١].

واعتبر رحمه الله علم الحدود بهذا المفهوم، من أشرف العلوم

وانفعها ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها مه هو داخل فيها[٥٢].

رابعا: وسائل وآليات تزكية النفس

اهتم ابن القيم في كتاباته بتحديد وسائل التزكية وسبلها ليأتي منهجه متسما بالواقعية والتطبيق دون الاكتفاء بالتأصيل. بل إننا نجد في كتاباته توصيفا دقيقا شموليا متكاملاً معدّاً للتطبيق والتنفيذ. والمتتبع لكتاباته، يلحظ تحديده للوسائل والسبل التي تصل بالإنسان إلى برّ التزكية والسمو الإيماني بدقة وموضوعية وفعاليّة بالغة. فهو يرسم الأساسيات ثم يضع وسائل تطبيقها، وسبل تنفيذها ووجه الإفادة منها في حال تفعيلها والسير عليها.

وقد حدد رحمه الله ذلك المنهج بإيجاز ووضوح حيث يقول:" القلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية عن المؤذي الضار وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئات"[٥٣].

والمتأمل في هذا النص، يلحظ تشخيصه رحمه الله وتوصيفه الدقيق لخطوات التزكية ودرجاتها. فهي تقوم في فكره على ركائز ثلاث أساسية:

الركيزة الأولى: تثبيت الإيمان والطاعات وفعل المأمورات

الركيزة الثانية: اجتناب الآثام والمعاصي وترك المنهيات

الركيزة الثالثة: استفراغ المواد الفاسدة والصفات المذمومة من النفس.

وقد تعرض في كتاباته لأهمية ومحورية كل من تلك الركائز على حدة. وخلص إلى أن ركيزة ترك الأوامر عند الله أعظم من ركيزة ارتكاب المناهي في باب تزكية النفس وترقيها وقد خصص لهذه المسألة فصولا في كتابه الفوائد، وساق الأدلة على منهجه، من خلال فهمه لما ورد من نصوص في القرآن الكريم والسنة وتحريه لمقاصدهما، وأقوال السلف الصالح ومنهجهم.

وقام بتتبع المسألة والتدليل عليها وساق لذلك ثلاث وعشرين وجها، بأسلوب أخاذ يتسم بالفهم العميق المستمد من النصوص، والوقوف عند جزئياتها ودقائقها، وبتحليل منطقي للأسباب والنتائج واستشراف لمقاصد النصوص في التشريع، قلّ نظيره. وخلص إلى أن فعل المأمور أحب الى الله من ترك المنهي،كما دلتّ على ذلك النصوص[٥٤]. حيث أن الإنسان إذا ترك المنهيات بدون فعله للمأمورات، فلن يتأتى له حصول التزكية وتنمية النفس وطهارة القلب، بل لم ينفعه ذلك الترك شيئا[٥٥]. وعليه فإن فعل المأمور مقصود لذاته وترك المنهي مقصود لتكميل فعل المأمور، فهو منهي عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه كما نبّه سبحانه على ذلك فى النهى عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة. فاذا فات المأمور على العبد، فاتت الحياة المطلوبة له[٥٦].

ومن هنا **جاء تركيزه رحمه الله وتفصيله للبحث في الاوامر ومتعلقاتها، وبناء صفات إيجابية محمودة في النفس،** تصل بها إلى مرحلة النفس الزكية التي تأبى بطبعها وتنفر من المناهي والمخالفات.

وقد أوضح لكل من تلك الصفات أوجه تطبيقها وفعالية إعمالها وآثار ذلك كله على حياة القلب وزكاة النفس. فتدرج رحمه الله في تفعيل

الأوامر والحضّ على الأخلاق المحمودة التي حضّ عليها الشرع ليصل بها إلى أن تصبح ملكات راسخة في النفس.

أما الركيزة الثالثة المتمثلة في استفراغ المواد الفاسدة والصفات المذمومة والرديئة من النفس[٥٧]، فقد خصّها بالأهمية البالغة في مؤلفاته وأدرجها تحت عنوان التوبة في عدد من فصول تلك المؤلفات.

والتوبة من أهم وسائل تخليص القلب من الأمراض التي تسقمه وتبعده عن الطريق المستقيم. فالقلوب أنواع، منها الصحيح ومنها السقيم ومنها الميت. وقد حوى القرآن الكريم في آياته ونصوصه شفاءا لكل مرض وداء[٥٨].

ولم يكن رحمه الله في ذلك الطرح بعيدا عن واقع أمته ومجتمعه، بل كان أكثر ما يكون واقعية في طرح وعلاج الأمراض والأدواء السارية في ذلك العصر. ولا تكاد تختلف تلك الادواء في أعراضها وأسبابها في مختلف الأزمان والعصور، فالطبيعة البشرية لا تكاد تتغير وإن ظهر في بعض جوانبها أوجها للاختلاف بحكم تغير الأزمان والأمكنة.

ومما يلاحظ على تتبعه رحمه الله لأدواء النفس كذلك، تركيزه على النقاط المحورية، وابتعاده عن الخوض في تفاصيل الأمور، وتقديم خطوات عملية في كل ذلك ليسهل على الإنسان اتباعها وتطبيقها. من هنا جاءت معالجته لأمراض القلب والنفس والروح، متسمة بنظرة شمولية فاحصة واقفة على أسباب الأدواء والعلل.

وقد وضع رحمه الله بعض الوسائل لتحقيق تلك الركائز الأساسية، منها:

- **محاسبة النفس**

تعد محاسبة النفس والإطلاع على عيوبها، من أكثر وسائل التزكية أهمية وأولوية، فهي تتداخل في ركائز التزكية كلها وبها يتم الكشف عن الصفات المذمومة والمواد الرديئة التي ينبغي للمرء التخلص منها بالتوبة. وزراعة الإيمان في القلب وتنميته بالطاعات، لا تكون إلا بعد تخليصه من الدغل المتمثل في صفات النفس المذمومة[٥٩]. وقد سار رحمه الله في استنباط تلك الوسيلة والتأكيد على اهميتها، من خلال النظر والتدبر في نصوص الآيات القرآنية المتضافرة. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر١٨). ومن هنا كانت زكاة النفس وطهارتها في منهجه، موقوفة على محاسبتها فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها[٦٠].

ويبدأ ابن القيم في تفعيل المحاسبة، بدفع مبتدأ الصفات المذمومة أولا وهي الخطرات. فالخطرات مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، ومن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب. ومن استهان بالخطرات قادته قهرا إلى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنى باطلة. **ومن أراد** الارتقاء بنفسه، عليه استحضار **مناقشة** الحساب واستذكار مطالبة الخالق له **بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات،** والتيقن بأن طريق النجاة لا يكون إلا بلزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات. فمحاسبة الإنسان نفسه مدعاة لتخفيف الحساب عنه يوم القيامة. وأكد على ان هلاك النفس من إهمال محاسبتها ومن موافقتها واتباع هواها، كما أوضح أن ترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور

على النفس، يؤول بها إلى الهلاك وهذه حال أهل الغرور ممن لا ينظرون في عواقب الامور[٦١].

كما أوضح رحمه الله أهمية هذه الوسيلة من خلال النظر في نهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ومن بعدهم من السلف الصالح، ممن رأوا في محاسبة النفس والأخذ بزمامها، منجاة من كل شرّ.

و خصص فصولا وأبوابا في كتاباته لبيان المحاسبة وفوائدها وكيفيتها. واعتبرها من أهم وأولى السبل لعلاج مرض القلب إذا استولت عليه النفس الامارة بالسوء[٦٢]. ويمكن إجمال الامور التي ينبغي للعاقل الحرص على محاسبة النفس عليها فيما يلي:

- المحاسبة على أداء الفرائض. فإن تذكر فيها نقصا تداركه إما بقضاء أو إصلاح.

- المحاسبة على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

- المحاسبة على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى.

- محاسبة الجوارح فيحاسب لسانه بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه، ماذا أرادت بهذا ولمن فعلته وعلى أي وجه فعلته. ويلزم نفسه بتذكر أن الله مطلع عليه، وأنه لابد أن يُسأل عن كل حركة وكلمة من حيث الإخلاص فيها والمتابعة[٦٣]. **وليست المحاسبة في منهجه رحمه الله غاية في ذاتها بل هي وسيلة للتزكية وأداة فعالة توصل إليها. وقد أورد ابن القيم للمحاسبة فوائد وثمار من أهمها: مقت النفس واستصغارها**، فإن من يطلع على عيب نفسه، يسهل

عليه التخلص من الصفات المذمومة والتخلي عنها. ومعرفة حق الله تعالى ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه، فإن عبادته لا تكاد تجدى عليه وهي قليلة المنفعة جدا. فالنظر في حق الله على الإنسان، يورثه مقت نفسه والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه واليأس من نفسه وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته. فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه علم علم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة. فالإنسان إذا أحيل على عمله هلك. فهذا المقت للنفس والاستصغار والازدراء للعمل، هو الذي يعلق رجاء العبد كله بعفو الله ورحمته. فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولا ثم نظره هل قام به كما ينبغي[٦٤].

وهذا كله يوجب الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت وان لايرى نفسه الا مفلسا.ومن أقرب الطرق الموصلة إلى مرضاة الله، دخول العبد وهو مفلس عليه، فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمنّ بها بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والافلاس المحض[٦٥].

- العبـــــادات

ابتنى ابن القيم منهجه في التزكية والارتقاء بالنفس، على بناء وتكوين صفات إيجابية في النفس والترقي بها من خلال ممارسة تلك الصفات حتى تصبح سجية لها وملكة راسخة فيها. وتأتي العبادات بمختلف صورها وأنواعها، في مقدمة وسائل تزكية النفس وترويضها على الخير.

ولا ينصرف ابن القيم في نظرته إلى العبادة بمفهومها الخاص

فحسب بل يتعداه، لتصبح العبادة شاملة لمختلف مناحي الحياة. فكل عمل وحركة وسكنة يقوم بها الإنسان، تصبح عبادة وقربة ووسيلة لتزكية النفس إذا ماجتمعت فيها النية الصالحة الصادقة والموافقة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويؤكد ابن القيم على الترابط الدقيق بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب في أداء العبادات المختلفة. فليس مدار تشريع العبادات وأعمال الجوارح على القيام بها وتأديتها بصورتها الظاهرة فحسب، بقدر ما يكون مدارها على صلاح القلب وحضوره[٦٦]. إضافة إلى أن العبادات بأنواعها وأشكالها المتعددة، غذاء للقلب والروح. فالقلب بتغذى من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ويؤيده ويفرحه ويسره وينشطه إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح.[٦٧]

ويؤكد ابن القيم على أهمية حضور القلب في سائر الاعمال، فتفاضل الاعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الايمان والاخلاص والمحبة وتوابعها[٦٨]. ومن هنا كان الخشوع عند ابن القيم رحمه الله، أصل الأخلاق المحمودة كلها[٦٩] وهو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه[٧٠]. وهو المظهر الأرقى لصحة القلب، فإذا خرج الخشوع من القلب، دلّ ذلك على مرض القلب وخرابه. فما ذهب الخشوع من القلب إلا بغلبة الأمراض عليه وسيطرة الأحوال الشريرة كحب الدنيا والتنافس عليها، والطمع والجبن والعجز والذل لغير الله على سويدائه.[٧١] ....

فالخشوع في فكره رحمه الله **ركيزة من ركائز الإيمان ومنبع لكل خلق فاضل ووسيلة من أهم وسائل التزكية**. فجميع الأخلاق الفاضلة من الصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم

والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الانشغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من مختلف الأخلاق المذمومة، ناشئة بإطلاق عن الخشوع وعلو الهمة.... ،فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل ومن دنت همته وطغت نفسه، اتصف بكل خلق رذيل [٧٢].

والمتتبع لمنهجه رحمه الله، يلحظ استمداده لتلك المعاني والوسائل من النصوص القرآنية الكريمة وما جاء في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. فيسوق الدلالات ويستنبط المعاني والمفاهيم من الآيات القرآنية بنظرة واعية ودراسة متأنية تستلهم القرآن الكريم وتستنطق آياته بحكمة وذكاء قلّ نظيره.

خامسا: طرق الحفاظ على زكاة النفس

قام ابن القيم رحمه الله في منهجه بإرساء **قواعد ووسائل** للحفاظ على زكاة النفس وتثبيت القلب على طريق الاستقامة وحفظه من الزيغ والانحراف. وتعد تلك القواعد بمثابة وسائل وقاية، اختط سبيل السير عليها لضمان حفظ القلب واستمرار النفس على طريق التزكية وعدم الزيغ عنه، وصيانة الطاعات عن محبطات الأعمال من الرياء والنفاق والبدع وغيرها.

ومن أهم تلك الوسائل: أن تتقدم محبة الله على محبة من سواه في القلب. فيؤثر مراد الله عز وجل على مراد سواه في النفس. ومن تلك الوسائل كذلك: تعظيم الامر والنهي وهذا ناشئ عن تعظيم الأمر الناهي.

فإن الله تعالى ذمّ من لا يعظم أمره ونهيه قال سبحانه وتعالى:﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح١٣). قالوا في تفسيرها مالكم لا

تخافون لله تعالى عظمة[٧٣].

فأول مراتب تعظيم الحق عز وجل، تعظيم امره ونهيه، فيكون تعظيم المؤمن لامر الله تعالى ونهيه دالا على تعظيمه لصاحب الامر والنهي ويكون بحسب هذا التعظيم من الابرار المشهود لهم بالايمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الاكبر.

وينجم عن هذا النوع من التعظيم، البعد عن مايمكن أن يفسد العمل من الرياء للخلق. فالعبد قد يقدم على فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، وقد يتقي المناهي خشية سقوطه من اعينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع على المناهي. فهذا ليس فعله وتركه صادرا عن تعظيم الامر والنهي ولا تعظيم الآمر الناهي سبحانه. والرياء وإن دق محبط للعمل وهو أبواب واسعة كثيرة.فيأتي التعظيم لبخلّص العمل من مبطلاته ويقيم القلب على ما تقتضيه الاستقامة.

وعلى هذا فقد وضع رحمه الله أسسا وعلامات يعرف بها المؤمن مدى تعظيمه لأوامر الله ونواهيه ومن أهمها: رعاية اوقات تلك الأوامر والنواهي وحدودها، والتفتيش على اركانها وواجباتها وكمالها والحرص على تحينها في اوقاتها والمسارعة اليها عند وجوبها، والحزن والكابة والاسف عند فوت حق من حقوقها.كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم انه تقبلت منه صلاته منفردا فانه قد فاته سبعة وعشرون ضعفا[٧٤].

إضافة إلى الحرص على التباعد عن مظان النواهي واسبابها وما يدعو اليها ومجانبة كل وسيلة تقرب منها. كمن يهرب من الاماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وان يدع ما لا باس به حذرا مما به بأس، وان يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في

المكروه، و مجانبة من يجاهد بارتكابها ويحسنها ويدعو اليها ويتهاون بها ولا يبالي ما ركب منها، فان مخالطة مثل هذا داعية الى سخط الله تعالى وغضبه ولا يخالطه الا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

وان لايسترسل مع الرخصة الى حد المجافاة والبعد عن الوسطية، ولا يتعرض للغلو في التشديد على النفس. فحقيقة التعظيم للامر والنهي ان لا يعارضا بترخص جاف ولا يعرضا لتشديد غال. ولا يتكلف في البحث عن العلة في الحكم أو الأمر والنهي لئلا يضعف الانقياد والتسليم لامر الله عز وجل لديه، بل يسلم لامر الله تعالى وحكمته ممتثلا ما امر به سواء ظهرت له حكمته او لم تظهر. فان ظهرت له حكمة الشرع في امره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد والتسليم ولا يحمله ذلك على الانسلاخ منه وتركه.

وبهذا يكون رحمه الله قد قام بتقديم منهج متكامل للتزكية والترقي بالنفس إلى مصاف السمو الإنساني. ذلك المنهج الذي حوى وسائل الوقاية والعلاج في آن واحد، في أسلوب زاوج فيه بين التأصيل والتطبيق، فغاص في أغوار النفس البشرية ليكشف عن أدوائها ويقوم بتوصيفها في غاية الدقة والموضوعية، ومن ثمّ يحدد العلاج الملائم لكل داء ومرض. وهو في كل هذا لا نجده إلا ملتزما بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، منطلقا منهما، محكّما لنصوصهما في كل مسألة ورأي. فجاء منهجه رحمه الله صالحا للتطبيق والتفعيل رغم مرور قرون من الزمن على تقديمه وإنشائه.



الخاتمـــــــــة

يتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن ابن القيم رحمه الله قام بإثراء الفكر الإصلاحي الدعوي في الإسلام حين قدّم للأمة - فيما قدّم- منهجا متكاملا لتزكية النفس وإصلاحها. ويحتل ذلك المنهج الصدارة بين المناهج المختلفة، التي تناولت مجال تزكية النفس بالبحث والدراسة. خاصة وأنه قد ظهر في وقت، بلغت فيه الانحرافات الفكرية والاجتماعية مداها. فقد تغير في تلك الأجواء، فهم الناس للدين والتزكية والترقي بالنفس، واختلطت في أذهانهم كثير من التصورات الفلسفية وغيرها، بكل ما تحمله من بعد وتجاوز لنبع العقيدة الإسلامية الصافي.

إلا أنه رغم تلك التحديات والمواجهات الصعبة، فقد تمكن رحمه الله، من إستنباط وصياغة منهج إصلاحي التزم الكتاب والسنة قلبا وقالبا.

لقد أضفت تلك المرجعية في منهجه للكتاب والسنة، وما لحق بها من سمات التوازن والوسطية والواقعية على منهجه، عناصر الاستمرارية والفعالية والقدرة على احتواء مختلف الظروف الفكرية والاجتماعية الصعبة، مما رفع منهجه إلى مصاف الصلاحية والفعالية، ليس في عصره فحسب، بل على امتداد عصور لاحقة وأجيال متتالية.

وقد تبين من خلال دراسة ذلك المنهج والوقوف عليه، أن المرجعية المطلقة للنص القرآني المعصوم والسنة الصحيحة، كفيلة بمعالجة مختلف الأمراض التي تعرض للنفس والقلب، وإرساء دعائم أخلاقية وصفات إيجابية واقية لهما.

ويمكن إجمال نتائج هذه الدراسة في النقاط التالية:

- وضع ابن قيم الجوزية رحمه الله منهجا متكاملا لتزكية النفس والوصول بها الى كمال النفس الذي هو غاية سعادتها وشرفها. وهذا

المنهج مستفاد من النصوص القرآنية والسنة النبوية، حيث أنه لا سبيل إلى تزكية النفس إلا عن هذا الطريق.

- أكدّ رحمه الله أهمية التزام النهج الذي جاء به الرسل لإصلاح النفوس مع بيان عور وانحراف المناهج والسبل الآخرى التي ادعاها غيرهم من الفلاسفة والمتصوفة.

- يقوم منهج ابن قيم الجوزية رحمه الله على مقومات وأسس تتمثل فيما يلي: الالتزام التام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، تخليص التوحيد وتصحيح العقيدة، محاربة التقليد والجمود الفكري، والواقعية والتوازن.

- اهتم في منهجه يوسائل تزكية النفس وسبلها لجعل عملية التزكية معدّة للتطبيق والتنفيذ. وأقام تلك الوسائل على ركائز ثلاث هي: تثبيت الإيمان والطاعات وفعل المأمورات، اجتناب الآثام والمعاصي وترك المنهيات، واستفراغ المواد الفاسدة والصفات المذمومة من النفس عن طريق التوبة.

- وضع العديد من الوسائل لتفعيل تلك الركائز وتنفيذها منها: محاسبة النفس والعبادات.

- قام بصياغة وسائل للحفاظ على زكاة النفس وتثبيت القلب على طريق الاستقامة تتمثل في: تقديم محبة الله على محبة من سواه، تعظيم أوامره ونواهيه.

والدراسة إذا قامت بمحاولة الاستقصاء والتتبع لتلك الجوانب في منهجه رحمه الله، تأمل بتتابع الجهود وتواصل الدراسات للكشف عن المزيد من الجوانب والصفحات المشرقة في منهج ابن القيم رحمه الله وغيره من علماء ومجتهدين، تمكنوا بفضل الله سبحانه من صيانة تراث

هذه الأمة وفكرها من خلال تقديم مناهج رصينة تبنت نصوص الكتاب والسنة منهلا ومعينا.



الهوامش والتعليقات

1- أنظر في ترجمته: عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية،بدون تاريخ، بيروت،ج٣، ص ١٦٨. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ج١٤، ص ٢٣٤. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، العبر في خبر من غبر، ت: صلاح الدين المنجد، ١٩٤٨م، الكويت، الطبعة الثانية، ج٦، ٢٨٢. أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف، مصر، ج١٠، ٢٤٩. ، محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، الرد الوافر، ت: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي١٣٩٣هـ، بيروت، ج١، ص ٦٨. محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة ، بيروت، ج٢، ١٤٣.

2- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ١١٠. أبو الفضل أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد خان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، ١٩٧٢م الهند، الطبعة الثانية ، ج١، ٥٢٧.

3- صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم، ت: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، بيروت، ج٣، ص ١٣٨ وما بعدها.

4- ابن كثير، مرجع سابق، ج١٤،ص ٢٣٤، ٢٣٥.

5- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ت: محمد الفقي، دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م، بيروت،الطبعةالثانية، ج١ ص٥٧-٥٨.

6- ابن حجر، الدرر الكامنة، مرجع سابق، ج٣، ص ٤٠٠.

7- البدر الطالع، مرجع سابق، ج٢، ص ١٤٤، ١٤٥.

8- أبجد العلوم، مرجع سابق، ج٣، ١٤٠

9- أبجد العلوم، مرجع سابق، ج٣، ص ١٣٩

10- ابن قيم الجوزية، الفوائد، دار الكتب العلمية، ١٩٧٣م، بيروت، الطبعة الثانية، ج١، ١٥٣

11- في آراء الفلاسفة اليونان في النفس: محمود قاسم، في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩م، مصر، الطبعة الرابعة، ص ٢٣ وما بعدها.

12- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، تصحيح وتعليق: محمود إبراهيم، المكتبة العباسية، ١٩١١م، مصر، ص ٤.

13- ابن قيم الجوزية، الروح، دا رالكتب العلمية، ١٩٧٥م، بيروت، ج١، ١٧٥

14- الروح، المرجع السابق، ج١، من ص ١٧٥- ص ١٩٦. وأنظر كذلك له: توضبح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم، ت: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي١٤٠٣هـ، يروت، الطبعة الثالثة، ج٢، ١٧٩.

15- ابن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، ، ١٣٩٥ه/١٩٧٥م، بيروت، الطبعة الثانية، ج١، ٧٦.

16- ابن القيم، الروح، ج١، من ص ٢٢٠- ٢٢٧. وانظر كذلك: عمر أحمد الراوي، طب القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحراني وابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، بيروت، ص ٣٦٤-٣٦٨.

17- ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ت: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،الطبعة الرابعة عشر، ج٣، ص ١٨.

18-اغاثة اللهفان، مرجع سابق، ج١، ص ٧٧.

19- أنظر هذا لأبن القيم في: تحفة المودود بأحكام المولود، ت: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دا رالبيان، ١٩٧١م، دمشق، ج١، ص ١١٧. ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ت: عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، ١٩٧٣م، بيروت، ج٣، ص ١٥١. ابن القيم، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دا رالكتب العلمية ، بدون تاريخ، بيروت، ج٢، ص ٢٤٩.

20- إغاثة اللهفان، ج١، ص ٥٥. وأنظر كذلك: مدارج السالكين، ج٢، ص ٣١٧.

21- زاد المعاد، ج٣، ص ١٠.

22- إغاثة اللهفان، ج١، ص ٤٦.
23- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج٢، ص ١١٩.
24- المرجع السابق، ج٢، ص ١٢١.
25- مفتاح دار السعادة، ج٢، ص ١٢١- ١٢٢.
26- إغاثة اللهفان، ج١، ص ٤٦- ٤٧.
27- بتصرف عن ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج١، ٢٦٧.
28- رواه البخاري، حديث رقم ٧٨٨١.
29- ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، بدون تاريخ، ج١، ١٨٩.
30- بتصرف بسيط عن مدارج السالكين، ج٢، ص ٣١٥.
31- بتصرف بسيط عن إغاثة اللهفان، ج١، ص ١١٩.
32- الطب النبوي، ج١، ص ٣.
33- الفوائد، ج١، ص ٤٨.
34- الطب النبوي، ج١، ٣٢٤- ٣٢٥.
35- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ت: علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، ١٩٩٨م، الطبعة الثالثة، ج٢، ص ٥١٧.
36- المرجع السابق، ج٣، ص ٩٥٣.
37- مفتاح دار السعادة، ج٢، ص ١٢٠.
38- مفتاح دار السعادة، ج٢، ص ١٢٠.
39- الفوائد، ج١، ص ٨١ وما بعدها.
40- الطب النبوي، ج١، ١٥٦.
41- الفوائد، ج١، ص ٥٣.
42- راجع في تفاصيل تلك الحالة: محمد بن إسماعيل الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، تحقيق: صلاح الدين مقبول، الدار السلفية، ١٤٠٥□، ١٦.

43- ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ت: هشام عطا، مكتبة نزار الباز، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، مكة المكرمة، ج١، ٣٠
44- المرجع السابق، ج١، ص ٣٠.
45- الصواعق المرسلة، ج٤، ص ١٥٣٥. وانظر كذلك بعض أقواله في ذم التقليد في: زاد المعاد، ج٢، ص ٦٢٧.
46- مفتاح دار السعادة،، ج١، ١٢٩.
47- المرجع السابق، ج١، ص ٢٩٧.
48- المرجع السابق، ج١، ص ٢٩٧ وما بعدها.
49- الوابل الصيب من الكلم الطيب، ت: محمد عوض، دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م، بيروت، ج١، ص ١٣.
50- الفوائد، ج١، ص ٦٧.
51- الفوائد، ج١، ١٤١.
52- الفوائد، ج١، ص ١٤٠ وما بعدها.
53- إغاثة اللهفان، ج١، ص ١٦.
54- الفوائد، ج١، ص ١١٩.
55- الفوائد، ج١، ص ١١٩.
56- الفوائد، ج١، ص ١٢٧.
57- إغاثة اللهفان، ج١، ص ١٦.
58- إغاثة اللهفان، ج١، ص ١٥.
59- زاد المعاد، ج٢، ص ٢٧.
60- مدارج السالكين، ج٢، ٥١٠.
61- إغاثة اللهفان، ج١، ص ٨٢.
62- المرجع السابق، ج١، ص ٨٣ وما بعدها.
63- المرجع السابق، ج١، ص ٨٣.
64- المرجع السابق، ج١، ص ٨٨. مدارج السالكين، ج١، ١٧٣.
65- الوابل الصيب، ج١، ص ١٥.

66- بدائع الفوائد، ج٣، ص ٧١٠.
67- إغاثة اللهفان، ج١، ٤٦.
68- الوابل الصيب، ج١، ص ١٩.
69- الفوائد، ج١، ١٤٣.
70- مدارج السالكين، ج١،٥٢١.
71- هداية الحيارى، ج١، ص ١٠٤.
72- المرجع السابق، ج١، ص ١٠٥.
73- الوابل الصيب، ج١، ص ١٥ وما بعدها.
74- الوابل الصيب، ج١، ص ١٨.

المراجــــــع

ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ت: أبو الفداء عبد الله القاضي. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الثانية.

ابن تغري، أبو المحاسن جمال الدين يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مصر: المؤسسة المصرية للتأليف. بدون تاريخ.

الجوزية، ابن القيم. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ت: محمد حامد الفقي. بيروت: دار المعرفة. ط٢. ١٩٧٥م

_______. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ت: محمد الفقي. بيروت: دار الكتاب العربي. ط٢، ١٩٧٣م.

_______. زاد المعاد في هدي خير العباد. ت: شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط١٤، ١٩٨٦م.

_______. رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه. ت: عبد الله المديفر. الرياض: مكتبة فهرسة الملك فهد الوطنية. ١٤٢٠هـ.

_______. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم.ت: زهير الشاويش. بيروت: المكتب الإسلامي. ط٣. ١٤٠٣هـ.

_______. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمةوالتعليل. ت: محمد بدر الدين

_______. طريق الهجريين وباب السعادتين. ت: عمر بن محمود. الدمام: دار ابن القيم. ط٢. ١٤١٤هـ.

_______. إعلام الموقعين عن رب العالمين. ت: عبد الرؤوف سعد. بيروت: دار الجيل. ١٩٧٣م.

_______. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. بيروت: دا رالكتب العلمية

_______. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. ت: زكريا يوسف بيروت: دار الكتب العلمية.

_______. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام. ت. عبد القادر الأرناؤوط. الكويت: دار العروبة. ط٢. ١٩٨٧م.

_______. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. بيروت: دار الكتب العلمية. بدون.

_______. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. المدينة: الجامعة الإسلامية. بدون.

______. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. ت: علي بن محمد الدخيل. الرياض: دار العاصمة. ط٣. ١٩٩٨م.

______. الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه. ت: محمد جميل غازي. جدة: مكتبة المدني. جدة، بدون.

______. بدائع الفوائد. ت: هشام عطا. مكة المكرمة: مكتبة نزار الباز ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

______. الوابل الصيب من الكلم الطيب. ت: محمد عوض. بيروت: دار الكتاب العربي. ١٩٨٥م.

______. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. بيروت: دار الكتب العلمية. بدون.

الدمشقي، محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين. الرد الوافر. ت: زهير الشاويش. بيروت: المكتب الإسلامي.١٣٩٣هـ.

الدمشقي، عبد الحي بن أحمد العكري. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت: دار الكتب العلمية.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان. العبر في خبر من غبر. ت: صلاح الدين المنجد. الطبعة الثانية. الكويت. ١٩٤٨م.

الشوكاني، محمد بن علي. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. بيروت: دار المعرفة .

الصنعاني، محمد بن إسماعيل. إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد. تحقيق: صلاح الدين مقبول. السعودية: الدار السلفية، ١٤٠٥هـ.

أبو الفضل، أحمد بن علي. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق: محمد خان. الهند: مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية. ط٢. ١٩٧٢م.

قاسم، محمود. في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام. مصر: مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الرابعة. ١٩٦٩م.

القنوجي، صديق بن حسن. أبجد العلوم. ت: عبد الجبار زكار. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٧٨م.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية. بيروت: مكتبة المعارف.

كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة اليونانية. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.ط٦. ١٩٧٦م.

ابن مسكويه. تهذيب الأخلاق. تصحيح وتعليق: محمود إبراهيم. مصر: المكتبة العباسية. ١٩١١م.